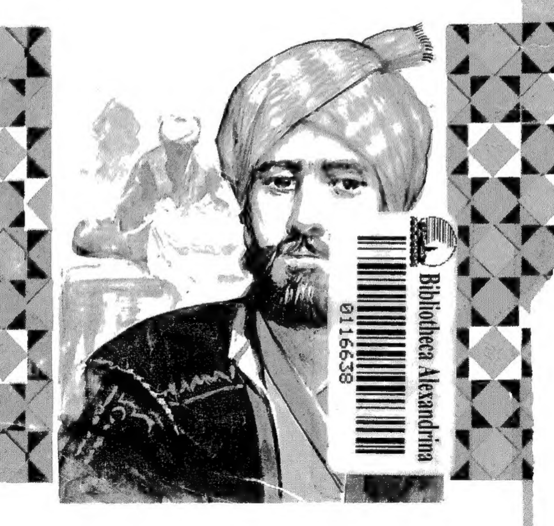
العلماء العرب

١٩

الزهراوى

أبو الجراحة



تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء
العرب
(١٩)

الزهراوى
أبو الجراحة

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٥٧٤٧٠٨٣ - تلكس ٩٢٠٠٢ يو ان



نقّاش من قرطبة

دخَل « عباسُ » النقّاش ، على ولِيّ العهدِ « الحَكَم » ، فى قصرِه بقُرْطُبَة . كان معَه الطبيبُ « عيسَى بنُ اسحق » ، رئيسُ « بيمارِسْتان » (مستشفى) قُرْطُبَة . ووقفا ينتظِرَان ، حتى دعاهما « الحَكَمُ » إليه . وقال « عِيسَى » لولِىِّ العهدِ :

– ها هُو ، أيّها الأميرُ ، الرجلُ الذى حدثتُك عن مهارتِه فى النّقْشِ والزّخْرَفَةِ .

فقال « الحَكَمُ » لعباسٍ :

– تقدّمْ يا رجل ، وأَرِنَا كفَّيْك .

وتقدّم « عباسُ » خطوَتَيْن ، وبسَط كفّيْه لِولِىِّ العهد ، فتَحسَّسهما وتأمّلهما ، كانَتا خشِنَتَيْنِ ، نافرتَى العُرُوق . وكانتْ أصابعُ الكفّين مرهفةً وطوِيلةً ، كأنّها أصابعُ عازِفٍ على العُود ، وابتسَمَ « الحَكَمُ » وقالَ لِعيسَى :

– هكذا أرِيدُ يَدَىْ من سينقُشُ ويزخرِفُ الأبوابَ ، والنوافِذَ ، والجُدْرَانَ ، فى قصْرِ « الزهراءِ » .

والتفَتَ « الحَكَم » إلى « عباسٍ » قائلاً :

– أُحِبّ من يعْمَلُ بيديْهِ ، ولا يعتمِدُ على صِبْيَتِه .

فقال لهُ « عبّاس » :

– أيُّها الأميرُ ، إننى أضَعُ التصْمِيمَ لما سَأنْقُشُه وأُزخرِفُه بنفسِى ، وسأعرِضُه عليك قبْلَ تنفِيذِه . ولِى مساعِدِىَّ المدَّربين ، الذين أعتمِدُ عليْهِم فى التنفِيذ ، تحت إشرافِى



المستمِرّ ، ثم أتولّى بنفسِى خِتَامَ كلّ العملِ ومراجعتِه ، والتأكُّدَ من سلامتِه ، بيديَّ هاتَيْنِ ، حتى لا يكُونَ فيهِ نَشَازٌ . تماماً ، مثْلَ اللحْنِ الموسِيقِىّ .

فضَحِك « الحَكَمُ » وقَال :

– حدِيثُك يا عَبّاس حَدِيثَ متذوِّق فنّان .

فقال « عِيسَى » مادِحاً « عبّاس » :

– أيهّا الأمير ، عَبّاسٌ فنانٌ حقاً . يرسِمُ الشكْل عَلَى الرخَامِ ، أو الخشَبِ ، أو الجِصِّ (الجبْس) ، أو الحجَرِ ، ثم يرُوحُ يحفِرُ فِيهِ ويُقوِّرُ ، ويُغَوِّر ، ويُبْرِزُ ، ويَعْطِف (يُمِيلُ الاستدَارَات) ، كأنُه واحدٌ من هؤُلاءِ المَرَدَةِ النّحَاتِينَ للتّماثِيلِ ، فى بلادِ اليُونَانِ والرُّومانِ ، فى سالِفِ (سابق) القرُونِ .

فقالَ « الحَكَمُ » لعبّاس :

– سأقُول لك ، يا عبّاس ، كيف نرِيدُ الزخارِف والنقُوش ، فى قصر الزهرَاءِ ، ومسجدِها ، أريدُ أن تجمَع طرُزُها بينَ فنونِ الزخرفَةِ : البِيزَنْطِيّةِ ، والقُوطِيّة ، والفارِسِيّةِ ، والدِّمشقِيَّةِ . فنحنُ ورثَةُ كلِّ الحضَارَات ، وسنُعْطِى ما وَرِثْناه لمن يأتِى بعدَنا .

فقال « عباسٌ » بثِقَةٍ :

– أعرِفُ كلَّ هذهِ الطرُز جمِيعاً أيّها الأمير . وقدْ رأيْتُ بعيْنَىّ طرُزَ البِنَاءِ ، التى رسَمَها المهندِسُون على الورَقِ لضاحِيَةِ قُرْطُبَةَ الكُبْرى : « الزّهْرَاء » ، وستكُونُ راضِياً إن شاءَ الله ، أيّها الأميرُ ، أنْتَ ووالِدُك الخلِيفَةُ « عبدُ الرحْمنِ الناصِرِ » ، أعزّه الله .

ابن الزهـــراء

حين عادَ « عبَاسٌ » ، ذاتَ ليْلةٍ ، إلى بيتِه ، فى موقع العمل بالزهْراءِ ، سمِعَ صُرَاخَ وليدٍ ، ورأى الطبيبَ « عِيسَى » جالِساً . وبالقُرْبِ منْه « قابِلةٌ » (مولِّدةٌ) تغسِلُ يديْها ، من ماءِ إبريقٍ نحاسِيٍّ . وأدرَك « عبّاسٌ » أن الله قد رزَقه بولِيدٍ . ورأتْه أختُه ، فتوقّفَتْ عن صبِّ الماءِ من الإبرِيقِ ، ووضعَتْ كفَّها على فمِها ، وأطلقَتْ زغْرُودةً ممتدةً وعالِية . وأشرَقَ وجهُ « عبّاس » ، واجتاحتْه فرْحَةٌ غامِرةٌ ، ونهضَ الطبِيب ، وصافَح « عبّاس » مُهَنّئا ، قائِلاً له :

– بُورِكَ لكَ فى ابنِك يا عبّاس ، أىّ اسمٍ ستسمّيه بهِ ؟

فقالَ لهُ « عباسٌ » برَجاءٍ :

– سمِّه أنْتَ يا طبِيبَ قُرْطُبَةَ ، فقد وهَبه اللهُ الحياةَ على يديْك .

فقَالَ له الطبيبُ :

– سأسمّيه إذن « خَلَف » . خلَفُ بنُ عبّاسٍ . وسيكُون خيرَ خَلَف ، لخيرِ سَلَفٍ ، إن شَاءَ الله .

وضحِك الطبيبُ وقالَ لأختِ « عبّاس » :

– أتعرِفين . هذا الولِيدُ ، هو أوّلُ مولُودٍ يُولَد ، لأحَدِ العامِلينَ فى الزهْراء .

قريباً من السحب

شبّ « خَلَفٌ » ونَما ، فى بيتٍ من هذِهِ البيوتِ المؤقّتة ، التى أقِيمتْ لعُمَّالِ الزهرَاءِ ، فى سفْحِ جبَلٍ أسْوَد ، تتغيّر ألوانُه فى درجَاتِ الضّوءِ ، والظّلال ، فى اللّيْلِ والنّهار ، وعبْرَ فصُولِ السّنين ، وكان العملُ يجرِى فى الجبلِ على قدَمٍ وساقٍ . وكانَ « خلفٌ » يطيبُ له أن يصعَدَ بيْنَ أحجارِ الجبَلِ ، من السفحِ ، إلى القِمّةِ ، ويجلِسَ هناكَ ، قريباً من السُّحُب ، يمدُّ بصَرَه فِى كلِّ الأنحاءِ .

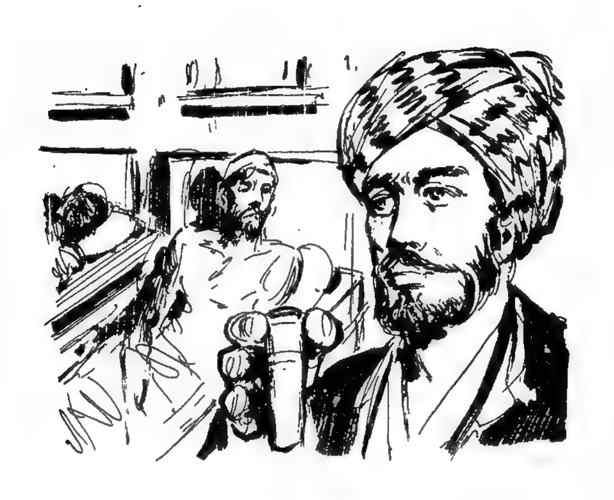
وحفِظَ « خَلَفٌ » القُرْآن الكرِيمَ ، والأحادِيثَ ، وتعلّمَ القِرَاءةَ والكِتَابَة ، ومبادِىءَ الريَاضِيّات ، وتعلّم مِهْنَةَ النّقْشِ ، حفْراً غائِراً وبارِزاً ، على أيدِى مُسَاعِدِى أبيه ، ثم تَرقّى لِيتَعَلّم أسْرَارَ المِهْنَةِ من أبيهِ نفْسِه . وصارَ « خَلَفٌ » ماهراً فى الحِرْفة ، مَهَارَةَ أبيهِ ، وزَادَ عليهِ فراحَ يبْتكِرُ تصْمِيماتٍ جديدةً للزخرفةِ الإسلاميةِ الأندلُسِيّة ، ويعرِضُها على أبيهِ ، فيُثْنِى (يمدح) علَى خيالِه الواسِع ، وابتكاراتِهِ الجدِيدَةِ ، لزخارِفِ الخُطُوطِ الهندسِيّة ، والتّورِيقاتِ ، وحُسْن اختيارِه للألْوَان .

وقال « عَبّاسٌ » يوما ، لابنِه « خَلَفٌ » :

– سترِثُ هذه المهنَة يا بُنَىّ من بعدِى ، فعلَيْك فيهَا بالإخلاصِ ، والدِّقةِ ، قدْرَ طاقَتِك . واخترْ دائِماً مساعِدِيك ، من خِيرَةِ العُمّالِ ، وأعطِهم أجورَهُم ، فى ختَام كُلِّ يوم ، قبْلَ أن يجِفّ عَرَقُهم ، على الجِبَاه ، وكُنْ بجِوَارِهِم فى الأحْزَانِ والأفرَاح ، تمدّ لهم يدَ العون ، فى كلِّ حالٍ .

طمـوح خلـف

لكِنّ « عبّاس » فاجأ أبَاه ذاتَ يومٍ ، وكانَ قد بلَغ العشرِين من العُمْرِ ، قائلاً بهدُوءٍ :



– أبى . أرِيدُ أن أتعلّم الطِّبَّ ، على يدِ صديقِك « عيسَى ابنِ اسْحَق » .

فقالَ له « عبّاسُ » :

– ماذا ؟ الطبُّ طريقُه صعبٌ يا بُنَيّ . وخطَوُه يعنِى الموْت ، أو العاهَة . الخَطَأُ فى نَقْشِ الأَحْجَارِ أَهْوَنُ كثِيراً يا بُنَىّ . فى النّقْشِ أنْتَ تتعامَلُ مع الجمَادِ ، لتُنْطِقَ الكُتلةَ

بالجَمَالِ . لكنْ معَ المرِيضِ ، أنْتَ تتعامَلُ مع الحياةِ ، مع الجسَدِ البشرِيّ ، الملِيءِ بالعرُوقِ والأعصاب .

وسَكت « عباسُ » لحظةً ، ثم قَالَ :

– حفِظتَ القرآنَ يا خَلَفُ ، ودرسْتَ من الحدِيثِ واللغةِ والرّياضِيّاتِ ، ما يُنِيرُ لكَ عقلكَ فى مهنتِك ، وحياتِك ، وعلاقَتِك بالنّاسِ ، وحسْبُكَ هذَا من المعرفَةِ ، كنَقّاشٍ ، لقد صِرْتَ ماهِرًا فى النقْشِ يا عبّاس ، وتكتسَبُ من الرّزق ما يكْفِى حاجَتَك ، ويَزِيدُ علَيْها .

وكانتْ أُمُّ « خَلَف » وأختُه جالِسَتَيْنِ ، تسمعَان حِوَارَهُما . وقالَتِ الأُمُّ لزَوْجِها « عبّاسٍ » :

– فزِعَ خَلَفٌ ، حين ماتَتْ جارَتُنا ، وهى تضَعُ ولِيدَها . وعجَزَت القابِلةُ عنْ إنقاذِه وإنقاذِها .

فقالَ « عبّاسٌ » لخلَفٍ :

– ألِهذَا السبَبِ ، تفكرُ أنْ تكُونَ طبيباً ؟ أتظُنّ أنّكَ لو صِرْت طبِيباً ستُنْقِذُ الجنِينَ وأمَّه ؟ الأَطِبّاءُ يا بُنَىّ يتركُونَ ذلِك للقابِلَات ، مثلّما يتركُون الجِرَاحاتِ للحجّامِين (الحلّاقين) !!

فقال « خَلَفٌ » بعَزْمٍ أَقْلَقَ أَباه :

– ذلِكَ هو خطؤُهم يا أبِى . حين أصِيرُ طبِيباً ، سأفعَلُ بيدَيِ النقَّاشِ هاتَيْن ، ما يهرَبُ الأطبّاءُ من فعْلِه ، وما يتركُونَه للقابلات ، والحجَّامِين . لم أترَفّع عَلَى الحجَر ، فكيْف أترفّع عَلَى أجسَادِ النّاس ، وحياةِ النّاسِ . الدّين يا أبِى طِبُّ الأرْوَاح ، والطبّ يا أبِى حَيَاةُ الأبْدَان . أمّا النّقْش ، فلا يزِيدُ عن كونِه زِينَةً للجدرَان .

وجِمَ « عبّاس » ، حين سَمِعَ رأْىَ ولدِه فى النّقْشِ ، لكنّه ، فى ذاتِ اللّحظَةِ ، فرِحَ لطُمُوح ولَدِه ، وعلُوّ هِمَّتِه ، وقَالَ :

– غداً ، سأصحَبُك للقاءِ عيسَى بنِ اسحق . مَهَرْتَ فى النّقْش ، لكنّك لم تحبَّهُ بعْد ، وأرجُو أن تمهَرَ فى الطِّبِّ ، بقدْرِ حبِّك لَهُ الآن .

انظر واسمع أولاً

فرِح « عيسَى » بقدُوم « خلَفٍ » إليه ، ليدرُسَ الطِّبَّ على يديْه . وقدمّه إلى تلميذِه ، الطبيبِ الشاب « أحْمد ابنِ حسَدَاى » . وقَالَ لخلَفٍ :

– اذهبْ أوّلاً مع « أحْمد » ، وتجوّل معَهُ فى البِيمارِستَان ، بيْنَ المرضَى ، والأسِرّة ، ومكتَبَةِ البيمَارِسْتان ، وصيدلِيّتِها ، وقاعَةَ الجِراحَاتِ التى تسِيلُ فيها الدّمَاء ، تحتَ « مباضِعِ » (مشارِط) الحجّامِين . ثم عُدْ إلـىّ ، فقد تَعْدِلُ عن رغبتِكَ فى تعلُّمِ الطِّبِّ ، بعد أنْ ترَى ما يرُوعُكَ (يُخِيفُك) ، وتسمَعَ أنِينَ المتألِّمِين .

وصَحبَه « أحمدُ » ، وتجولّ وإياه فى البيمارستان ، جَنَاحاً جَنَاحاً ، وقاعَةً قاعَةً . ورأى « خلفُ » أجنحةً للرجالِ ، وأجنِحةً للنساءِ ، وقاعاتٍ شَتَّى ، لأنْوَاعِ الأمراضِ ، والتجهيز ، والحوادِثِ العارضَةِ ، والاستِقْبَالِ . ورأى صيدلِيةَ البيمارسْتان ، وبها أدْوِيةٌ وعقاقِيرُ ، وقوارِيرُ . ورأى مكتبةً ضخمةً تضُمّ مخطوطاتِ كِبارِ الأطِبّاءِ ، من شرقِ العالِمِ الإسلامى إلى غربهُ ، وبيْنَها نَسَخٌ من كُتُبُ الطبِيبَيْن : أبقْرَاط ، وجَالِينُوس .

ورأى أقْسَام المجانِين ، والمجذومِين ، وعجِبَ حين سمِعَ بالقُرْبِ منهم ، أصواتَ عزْفٍ جميلٍ ، يتدفَّقُ إليهِم من فنَاءِ البيمارسْتان ، عبْرَ النوافِذِ والأبْوَاب .

ودخَل « خلَفُ » مع « أَحْمَدَ » غرفةَ الجِراحَات ، ورأى بها « خلَفٌ » مِنْضَدَةَعمليات خشبيةٍ ، مفروشَةً بمَرْتبةٍ ومِلاءَةٍ بيضَاء ، وبجانِبِها منضدةٌ صغِيرةٌ ، عليها قِطَعٌ من الاسْفِنج ، وَدَوَارِقُ سوائِلَ ملونةٍ ، وأَدَوَاتُ جراحيةٍ قليلةُ العدَد ، بعضُها مصنُوعٌ من الذّهَب ، وبعضُها مصنوعٌ من الفِضّة . وكانتْ جُدْرَانُ الغرفَةِ مطلِيّةً بالجِصِّ الأَبيضِ ، وعاريةَ الجذْرانِ . وبها نوافِذُ زجاجِيّة ، ساطِعَةُ الضّوْءِ ، تُطِل على الفِنَاء ، ومن سَقْفِها تتدلّى مِشْكاةٌ زيتِيّةٌ ، ذاتُ سلاسلَ ، تنحدِرُ منَ بكَرَةٍ ، وتُرْفعُ وتُخْفَضُ ، حسَبَ الحاجَةِ ، فيسْطَعُ ضوْؤُها فوْقَ مِنْضَدةِ الجِرَاحة .

وعادَ بِهِ « أحمد » ، إلى حيْثُ يجلِسُ الطبيبُ « عيسَى ابنُ اسْحَق » .

الصبر .. والخيال

رآه « عِيسَى » مضطرِباً مما رَآه ، فقالَ لهُ :

— أزْعَجَك ما رأَيْتَه يا خَلَف ، سمِعتَ أنِينَ المرْضَى بأُذُنَيْك ، ورأَيْت ما عليهِم من ضِمَادِات ، بها آثارُ دِمَاءٍ .

فقالَ له « خَلَف » :

– لم يُخِفْني ما رأيتُه يا سيدِى الطبيب ، زَادَنِى ما رأيتُه عزْماً على أن أكُون طبِيباً ، يُخَفِّفُ آلامَ المَرْضَى ، ويُدَاوِى الجِرَاح .

فابتسَمَ « عِيسَى » ، وقال له :

– الحمدُ لله ، ولسَوْف يَفِيدُك ، فى صنعةِ الطِّبِّ ، ما تعلَمْتَهُ كنَقاشٍ ، من صَبْرٍ ودِقَّة وخَيَالٍ ، فالصَّبْرُ والدِّقَّةُ هما عُدَّةُ الطبِيبِ فى مهنتِه ، والخَيالُ وسِيلَةُ العقلِ لابتكارِ الجديد فِى مِهْنَةِ الطِّب ، الذى لم يقُلْ به ، ولم يصِلْ إلى معرفَتِه ، مَنْ قَبْلَه من الأَطِبَّاء .

المعــرفة والأخــلاق

وطَوَال سَنَواتٍ ، عَرَفَ « خلفٌ » من أطبَّاءِ بيمارستانِ قُرْطُبَة ، الكثِيرَ من المعارِفِ الطبيّةِ والكيماوِيّةِ ، عن الأعْشَابِ وآثارِها فى الشّفاء ، وعَنِ الأدوِيَةِ المُفْرَدَةِ والمُرَكبَةِ ، المُتَّخَذَةِ من النبَاتِ ، والمعادِن ، والأحْجارِ ، وأجْزاءِ الحيوانِ ؛ وعرَف الكثِيــرَ عــن طبِّ « جالِينُــوس » ، و « أبقـــراط » ،

و « ديسقوريدس » ، و « ابن سينا » ، و « الرّازِى » ، وعرَف كيفَ ومَتَى يجرّبُ الدواءَ فى الحيوَانِ ، قبلَ استخدامِه فى علاجِ الإنسانِ .

ووعَى « خَلَفٌ » فى البيمارستانِ تقاليدَ مِهْنَةِ الطبّ ، من حُسْنِ الملبس ، إلَى طيبِ الرائِحَةِ ، إلى نظافَةِ البدَنِ والثوْبِ ، ومن كتْمَانِ أسرارِ المرْضَى ، فلا يبُوحُ بشىءٍ عنها لأحَدٍ ، ولا يُفشِى لهم هذيَاناً قالُوه تحتَ التبخدِيرِ ، ووَعَى أنْ تكُونَ رغْبَتُهُ فى إبْرَاءِ المرضَى أكْثَرَ من رغبتِه فى أجرِه كطبِيبٍ ، وأنْ يُسَوِّىَ فى عِلَاجِه بينَ الصدِيقِ والعدُوّ ، ويرغَبَ فى عِلَاجِ الفقراءِ أكثَرَ مما يرغَبُ فى عِلَاجِ الأغنياءِ ، ووعَى أن يكونَ عفِيفَ النظَرِ ، فى منازِل المرْضَى ، مأمُوناً على الأرْوَاحِ ، فلا يصِفُ دواءً قتّالاً ، ولا يعْمَلُه ، ولا يصَفُ دوّاءً لِلنّساءِ يُسْقِطُ الأجِنّةَ ، ولا للرِّجالِ يقْطَعُ النَّسْل ، ويجتِهدُ قدْرَ وُسْعِه وطاقَتِه ، فى معرفةِ المرِيضِ ، ومرضِه ، وعملِه ، قبْلَ أن يكتُبَ الدوَاءَ ، ويحدِّدَ نظامَ الطَعَامِ ، وأن يقدِّمَ تشخِيصَه لمرضِ كلّ مرِيض إلى كبِيرِ الأطباء ، ويُطْلِعَ عليهِ زُملَاءَه من الأطِبّاء ، وأن تكونَ لديهِ كلُّ آلاتِ الطبّ كامِلَةً ، حاضِرَةً بين يديْه ، فى بيتِه ، مثلَمَا فى البيمارسْتان .

وحمِدَ « خَلَفُ » الله ، لأن الله قد خلَقَه عَلَى هيئَةٍ يتحتّمُ أن تكُونَ فى طبِيبٍ ، من تَمَامِ الخَلْق والتّكْوِين ، وصِحَّةِ الأعْضَاءِ ، وقُوّةِ الذاكِرَة ، وحُسْنِ الإدْرَاك ، وهـدُوءِ الأعْصَابِ .

قســم أبقــراط

وأتِيحتِ الفرصةُ أخيراً لخلف ، ليقرنَ العِلْمَ بالعَملِ ، فمارَسَ التشخِيصَ والعِلَاجَ مع أطِباءِ البيمارستان ، وصارَ فِيهما ماهرًا ، وبالدّواءِ خبِيراً ، وحرِيصاً على التدُّرجِ فى العِلاجِ ، من الغِذَاءِ ، إلى الأدويةِ المفردَةِ ، إلى الأدويةِ المركبة .

وحانَ الوقتُ لمنْحِ « خلَفٍ » إجازةَ الممارسَة للطبِّ ، فى مجلِسٍ حاشِدٍ ، كان علَى رأسِه « المحْتَسِب » (المسئول عن جوْدَة الإنتاجِ وتنفِيذِ القوانِينَ الآن) وردّد « خلَف » ورَاءَ « المحْتَسِب » قسمَ « أبقْرَاط » : « برِئْتُ من قَابِضِ أنْفُسِ الحُكَمَاء .. إن خَبّأْتُ نَصْحاً ، أو بذَلْتُ ضرًّا ، أو قَدّمتُ ما يقِلُّ عمله ، إذا عرفْتُ ما يعظُم نفْعُه ، .. واللهُ شاهِدُ علىَّ » .

حفــل فى القصــر

وكان « خلف » قد بلغ من العُمرِ خمساً وعشرِينَ سنةً ، حِينَ ودعّ الخليفةُ « عبدُ الرحمنِ الناصِر » الدّنيا لأهلِها . وتولّى حُكْمَ الأندلُسِ من بعدِه الخليفَةَ « الحَكَم المستنْصِرُ الثّانى » ، فورِثَ دولَةً قِويّةَ الأرْكانِ ، مُوَحّدةَ المدُنِ والقُرَى ، وخلافَةً أُقيمتْ لأوّل مرةٍ فى الأندلُس على يدِ أبِيه « عبدِ الرحمنِ » ، خلافَةً قُمِعتْ فى ظلّها ثوراتُ الثائِرينَ الداخِليّةِ ، وهَزَمَتْ أُمَراءَ الشّمَالَ من الفِرنجةِ فى : نافَار ، وقَشْتَالَةَ ، ولُيُون ، بل وصارُوا يلجأُون إلى قُرْطبةَ لتحكيمِ خليفَتِها فيما ينشَبُ بيْنَهم من صِرَاعاتٍ وخِلافَاتٍ ، وصارَتْ مدائِنُ الشمالِ وقُرَاه آمنةً فى الأندَلُس ، مثلَ مدائِنِ الجنوبِ الأندلِسىّ وقُرَاه .

وبايعَ « خَلَفٌ » مع المبايِعينَ للحكَمِ بالخلافَةِ بعد أبِيه ، وشَهِد فى قصْرِ الخلافَةِ بقُرْطبَةَ ، الحفلَ الذى أقِيمَ لعيسَى ابنِ اسحق ، بمناسبةِ تعيينهِ طبيباً للخليفَةِ ، ووزيراً للصحةِ بيْنَ وزرائِه ، إلى جانبِ كونِه رئيساً للبيمارستان .

وفى هذَا الحفلِ ، أعَلَن « الحكمُ » عزْمَه على جْعلِ الأندلُس فى عهدِه منارةً للعلُومِ وللمعارِف ، وللآدابِ والفُنُون ، وقالَ لوزيرِه عيسَى :

– أُرِيدُ أن تجِدَ لنا نظاماً يُرَاقِب بِهِ المحتَسِب باعَةَ الأدوِية مِنَ العطّارين ، التى يبِيعُونَها للنّاسِ ، ويراقِبُ غِشّ الأدوِيَةِ فى أيِّ مَكَان .

ونظَرَ « عِيسَى » إلى « خَلف » ، فأشارَ له برأسِه موافِقاً ، وقالَ هامِساً :

– سنجِدُ حلاً لذلِك يا سَيِّدِى الوزير .

لكل مشكلة حلّ

باتَ « خَلَفُ » ليلتَه تِلْكَ ساهراً يفكِّرُ ، يستعرِضُ جَوَانِبَ المشكِلَةِ التى أثارَها الخَلِيفَةُ الجدِيدُ ، ويبحَثُ لها بذكائِه وخَيَالِه ، عن الحُلُول .

وعندَ الظهرِ ، فى اليومِ التالِى ، جلَس « خَلَفٌ » إلى الوزِيرِ « عيسى » ، وقالَ له :

– أَرَى يا سيدِى الوزير ، أنْ نُلْصِقَ أوراقاً مكتُوبَةً على زُجَاجَاتِ الدّوَاءِ بِها أسماءُ الأدْوِيةِ والعقاقير .

فقال له « عيسَى » :



– وماذَا عن أقْرَاصِ الدّوَاء ؟

فقال له « خَلَف » :

– نطبَعُ أسْمَاءَ الأدوِيةِ بالنقْشِ على أقْرَاضِ الدَواءِ ، ننقُشُ الأسْمَاء مقلوبةً على قوالِبَ من العَاجِ أو الأبْنُوس ، ونطبَعُ بها على الأقراصِ ، مِثْلَما نفعَلُ مَعَ الأختام ، وبذلِكَ لا تختلِطُ الأقراصُ بعضُها ببعض ، فى الصيدلِّيةِ ، أو عندِ المريض أو عِنْدَ العطار .

فقال « عِيسَى » :

– وماذَا نفعَلُ مع العَطّارِين يا خلف ، ومَعَ القائِمين على الصّيْدِلية ، الذين يغشّون الدواء ؟

فقال « خلف » :

– نحدّد لهُمْ أولاً مقادِيرَ ونِسَبِ الدواء ، فى كلّ دَوَاء ، ونلزِمُهم بها بوسَاطَةِ المحتسِبِ ، وندرّب لهُ رجالاً من رجالِه ، على ذلِكَ العمَلِ ، ونُلزِمُ العطّارِين بعدمِ إفشاءِ أسرارِ الدواءِ لأحَدٍ ، إلا عن طرِيقِ طبيبٍ ، ويجرِّدُهم المحتسِبُ من حقّ ممارسَةِ المهنَةِ ، إذا غشُّوا فى تركِيبِ الدوَاءِ .

فقال عِيسَى :

– أحسنْتَ الرأىَ يا بُنَىّ ، وأصَبْتَ . وغداً أجلِسُ مع المحتسِبِ ، لنضَعَ نظاماً دقِيقاً لذلِك كلّه ، يُطبَّقُ فى كلِّ أرجاءِ الأندلُس .

طبيب رقيق القلب

صمت « عيسَى » برهةً ، ثم قال :

– أتعرِفُ يا خلَف ، لقد تمنيْتُكَ لمهنَةِ الطبِّ ، عندما لمسْت ذكاءَك ، ورأيتُ صبْرَك ومهارَتَك ، وأنتَ تعمَلُ مع أبِيك نقاشاً فى مبانِى الزهرَاء .

وابتسَمَ خلَفٌ ، وقالَ :

– عندِى أمنيةٌ لمرضَانا يا سيدِى الوزير ، لو عرضْتها على الخليفَةِ ، سيجيبُك إليها .

ونظَرَ « عِيسَى » إلى « خَلَف » ، مُنتظِراً ما سوفَ يقَولُه . فقَال :

– نجعلُ غِذَاءَ المرضَى لحماً ودجَاجاً وضأْناً . فالغِذاءُ يرفَعُ

من مقاومَةِ الجِسْمِ للمرضِ ، ويُعجِّل بالشّفاءِ . ونجدّد لهَمَ الأثاثَ والفراش ، ونُلبِسُهم ثياباً نظِيفةً . وحين يخُرجُ المريضُ من المستشفى ، نُعطِيه ثَوباً ، ونقوداً يستعِينُ بها ، إلَى أن يعُودَ إلى سابِقِ عافِيتِهِ ، وعملِه ، قبْلَ مرضِه . ونجعلَ دواءَ الطبِيبِ لمريضِه فى ورقَتيْنِ ، ورَقةٍ تُعْطى للمريض ، وورقةٍ تُعطَى لأهلِه ، ليذكّرُوه بدوائِه فى موعِدِه إذَا نسِيَ ، ويعدّوا له غذاءَه المحدّد له ، إذا قَصَّر فِيه .

فقالَ « عيسى » وهو يرنُو بإعْجَابٍ إلى « خلَف » :

– وماذَا أيضاً أيّها الطبِيبُ الرقِيقُ القلب ، المرْهَفُ المشاعِر ؟

فقالَ « خَلَف » :

– نجعَلُ لكلِّ مجنونٍ خادميْن ، يتناوَبَانِ على خِدمَتِه ، ينزعانِ عنْه ثيابَه كلّ صَبَاحٍ ، ويحمِّمَانِه بالماءِ البارِد ، ويُلبسانِه ثياباً نظِيفة ، ويفُسِّحَانِه فى الهواءِ الطّلْق ، ويجلسانِه بين العازفِين للموسِيقى .

فصاحَ « عِيسَى » :

– جميلٌ ما تقولُه يا خَلَف . لكنْ . أليْسَ ذلِكَ كثيراً على بيْتِ المالِ ؟

فقالَ « خَلَف » :

– لكنّه ليسَ كِثيراً على أغنياءِ الأندلُس يا سيدِى الوزِير . نفْعَل مِثْلَما يَفعَلُ أهْلُ المشرِق ، مع مساجدِهم وبيمارستاناتِهم . ندعُو إلى تخْصِيصِ الأغنياءِ أوْقَافاً من أمْوَالِهم ، وعوائدِ أراضِيهم وعقاراتِهم ، لصالِحِ المرضَى فى البيمارستاناتِ ، فى مَدَائِنِ الأندَلُس .

وأذن الخليفةُ « الحَكَم » لعيسى بدعْوَةِ الناسِ ، كىْ يُوقِفُوا أراضِى وأمْوالاً ، تَعُودُ أرْبَاحُهَا إلَى البيمارستانات .

مدنيّــة موســيقار

تزوّجَ « خَلَف » وصارَ له ابنٌ ، نذَرَه حين يكبُرُ لدراسَةِ الطبّ ، كىْ يملأً فراغَه من بعدِه ، فى تخفيفِ آلامِ المرضَى . وصارَ « خلَف » يجدُ وقتاً ، يقرَأُ فيهِ كتابَ « الأغانِى » للأصفهانى ، وكان « الحَكَم » قد بعثَ من اشتَرَى له نُسخَةً

منه منَ المشرِق ، دفَعَ ثمناً لها أُلْفَ دينارٍ ذهبِيّ ، ونسَخَ نُسخاً من الكِتاب ، تُعَارُ للقارِئينَ فى مكتبةِ القصرِ بقُرْطُبَة .

وكان « زِرْيَاب » موسيقَارُ المشرِق ، الأسودُ اللوْنِ ، قد وفَدَ على الأندلُس ، فهزّ أرجَاءَها بعزْفِه ، وفَتَيَاتِه المغَنِّياتِ ، وبما ابتكَرَه من وسائِلِ المدنيّةِ للنّاسِ ، وصارَ « خَلَفٌ » يجِدُ وقْتاً ، يذهَبُ فيه إلَى حَفلَات « زِرْيَاب » ، فى ساحَةِ قَصْرِ الخِلَافَةِ ، ويصَحبُ معَه زوجتُه وابنُه وأختُه وأمُّه وأبيهِ ، ويجلسُ مع ابنه وأبيه ، فى مجلسِ « الحَكَمِ » مع الوُزَرَاءِ والأدَبَاءِ والعُلَمَاءِ ، وتجلِسُ زوجَتُه وأمُّه وأُخْتُه مع نِسَاءِ القصرِ وَرَاءَ أرْوِقَةٍ وعقودٍ مسدُولةَ الأسْتَار . وتَعَلّمَتْ زوجَتُه وخادِماتُ بَيْتِه ، من فَتَياتِ « زرياب » ، ما تعلمتْهُ نساءُ الأندلُس ، من قَصٍّ لشُعُورِهن فوْقَ الحواجِب عَلَى الجِبَاه ، وكيفَ يأكُلْنَ بملاعِقَ وشَوْكَاتٍ خشَبِيةٍ مجلُوبةٍ من لِبنان ، وكيْفَ يشربن من أَوَانِى الخزف ، المثلّجةِ فى الهواءِ الطّلْق ، فى الليلِ البارِد ، والمعطرةِ بقطَراتٍ من مَاءِ الورْدِ ، وكيف يجلسْن علَى مقاعِدَ ، إلى مناضِدِ الطّعَامِ ، التى بُسِطتْ فَوْقَها المفارِشُ البَيْضاء . وعلّمهُن « خلَف » أن يُطِلْنَ المضغ للطّعَامِ ، وأن يتوقّفنَ عن الكَلَامِ أثْنَاءَ الأكْلِ ، حتى يَسْهُل هضْمُهنّ له ، فلكِلّ عملٍ وقتُه

الخاصّ ، مثلَما هو عند « زرياب » ، وفَتَيَاتِ « زِرْيابٍ » .

الجسد ليس رخاما

وفُوجِىءَ « عِيسى » ، ذاتَ نَهارٍ ، بدخُولِ « خلَفٍ » عليهِ ، قائلاً له فى اضْطِرَاب :

– أحوالُ المرضَى من المصابِينَ بالأورَامِ يا سيِّدِى الوزير ، تُؤَرِّق ليلِى .

فقالَ لهُ « عيسى » :

– ولِمَ أيّها الطبِيبُ ؛ الحجّامُون يشقّونها ، ويُداوُونهَا باللّبْخَات ، والكىِّ بالنّارِ .

فقالَ لهُ « خلَف » :

– ذلِكَ يا سيدِى الوزيرُ ، هو ما يُزْعِجُنِى . فالحجّامُون لا يعرفُونَ التشْرِيحَ ، وجِرَاحَاتُهم محدودَةٌ بسَطْحِ الجسَد ، حتى لا يقْطَعُوا عَصَبا ، أو عِرْقاً ، وهم لا يفْتَحونَ صدراً ولا بَطْناً . وأدواتُ الجِرَاحَةِ من ذهبٍ وفِضّة ، لا يَحْسُنُ بها القَطْعُ والشّق ، وتبردُ حرارتُها بسُرعْة .

فقالَ لهُ « عِيسَى » :

– وترِيد أَنْتَ أن تمارِسَ الجِراحَةَ بيدِك ، وتفعَلَ ما يأْنَفُ كلُّ الأطباءِ من فِعْلِه .

فقالَ لهُ « خَلَف » :

– نعم . وأرِيدُ أن يمارِسَ أطباءٌ سِوَاى الجراحَةَ بأيدِيهم ، إذا قبِلُوا ذلِك . ويتحمَّلُ الطبيبُ المسئوليةَ أمامَك إذَا أخْطَأَ تنفِيذ الجراحَة ، والإعدادَ لَها ، أما الآجالُ (الأعمار) فِهىَ بيدِ الله وحدَه .

فقال لهُ « عيسى » :

– وأدواتُ الجراحَةِ يا خلَف قليلةُ العدد ، لا تصلُحُ إلا لسطوحِ الجسَد . فهِىَ من ذهَبِ وفضة ، ولا ترُوقَ لَك .

فقالَ له « خَلَف » :

– نعمَ يا سيِّدِى .

فقال له « عِيسى » :

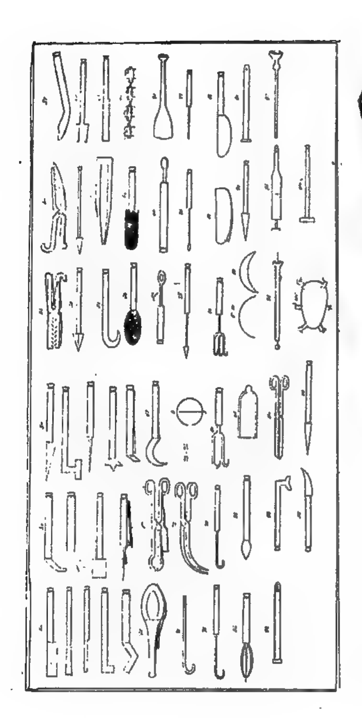
– إذا وجَدت أوّلاً آلاتِ جِرَاحَةٍ مُنَاسِبةً ، ومن معدِن لا يصْدَأ ، مثلَما لا يصْدَأُ الذهَبَ والفِضَة . أذِنتُ لك بما تطلُبُه

منّى ، بعد أن يجيزَ مجلِسُ الأطباءُ فى البِيمارسْتان ، ما تطلبُه مِنّا . فجسَدُ الإنسانِ حَىّ ، و ليسَ رُخاماً ولا خَشبا ولا حَجَراً ، ولأَنْ نتْرك مَرَض المرِيض لِله ، خيرٌ من أن نجرُؤ عليهِ ، ونخطِىءَ فى عِلَاجِه .

آلات الجــراحة

وقَضَى « خَلف » شهوُراً ، ولَيَالِىَ ، ساهِرا ، تحتَ قِنْدِيلٍ مُضَاءٍ ، يدرُسُ من جدِيدٍ كلّ ما يتصِلُ بالجرَاحَةِ ، والأحوالِ التى تحتَاجُ فيها الأمرَاضُ للجراحَاتِ ، وطُرُقِ إجرائِها ، فى ضوْءِ ما يعرِفُه من معارِفِ التشرِيح ، وجغرافِيَّةِ العُروقِ والأعصَابِ والأعضَاءِ فى الجسَدِ البشرِىّ ، ويقدرّ لها أشْكَالَ الآلاتِ الجراحيّةِ ، اللازِمَة فى كلّ جراحَة ، والمعدِن الذى تُتخَذّ منه هَذِه الآلات ، وتِلْكَ الأدوات .

وهدَاه عقلُه الفَذّ ، وعزْمُه القوِىّ ، إلى مَعْدِن الحِديد ، المطلِىّ ، والذِى ينبغى حِفْظُه ، فى القُطْن ، من الرطُوبَةِ والهَوَاء ، وجلَس إلى أورَاقٍ بيْضَاءَ ، مَبْسوطَةٍ تحتَ عينيْهِ ، وراحَ يرسِمُ بالمسِطَرَةِ ، والمثَلثِ ، والفِرْجَار ، الآلاتِ الجراحِيَّةَ





صورة عمرها ألف عام لبعض آلات الجراحة التى ابتكرها الزهراوى لأول مرة .

التى يتخيّلُها لِكلّ جراحةٍ ، ويحدِّدُ لها طولَها ، وسُمْكَها ، ووظيفَتَها الجِراحِيّة .

وذاتَ صباح ، حمَلَ « خلَفُ » رسُومه لآلاتِه ، وذهَبَ بِها إلى حدّادٍ ماهرٍ فى قُرطبةِ ، وكانَ حدّاداً فطِنا (ذكيا) ، ففهِم غايةَ خَلَف ، وحدّد له « خلفَ » تكوِينَ كلّ آلةٍ ، وشَفْرَتَها (حدّها القاطِع) ، ودرجةَ مَلَاسَتِها (نُعُومتها) ، وبدأ الحدّاد فى صُنْع آلاتٍ للجرَاحةِ من الحديدِ ، آلاتٍ جاوزَتْ عِدّتُها (عددُها) المائتَيْن ، لا عهْدَ لأحدٍ بها من قبْل ، فى كلّ أرجَاءِ الأرض .. وظلّ « خلف » جالِساً إلى جانِبه ، يُتابِعه ، ويُعِينُه ويُساعِدُه ، ويبدِى ملاحظاتِه له .

وحمَلَ « خَلَفُ » أَدَوَاتِه ، بِحْرصٍ ، فى صُنْدُوق ، فى لَفّةٍ من القُطْنِ الناصِعِ البَيَاض ، وذهَبَ بها إلى أستاذِه « عيسى » ، ومجلِس الأطباءِ ، ذاتَ صباح .

معك دعوات المرضى

استمع « عِيسَى » والأطباءُ فى انْبِهار ، إلى محاضرَةِ « خَلَف » ، عن آلاتِه الجراحِيّة ، طَوَال النّهار ، وشغَلَه شرْحُه ،

وعَرْضِه لآلاتِه ، عن دخُول « الحَكَم » بنفْسِه ، إلى مجلسِ الأطبّاء ، وجلوسِه جانِباً ، فى مكَانٍ غيرِ ملحُوظ بآخرِ المجلِس ، مَع عشَرَاتِ الأطِبّاء .

وحين فرغَ « خَلف » من محاضرتِه ، فوجِىء بتصفِيقِ الأطبّاءِ له ، وتزاحُمُهم حولَه ، مصافِحِين إيّاه ، ومهنّئِين له ، بإبداعَاتِه الجراحِيّة . وحين هَدَأُوا ، دُهِشُوا ، وهُمْ يروْن الخلِيفَةَ « الحَكَم » يتقدّم من « خلَف » ويعانِقُه ، ويقبّلُه بين عينَيْه ، يقول له :

– أرجُو أن تَتَفَنّنَ فى جِرّاحَاتِك ، مثلما تفنّنْتَ فى عَمِلِ هذِهِ الآلاتِ ، وأن تنتهِىَ على يديْك صفحَةُ ممارسَةِ الحجّامِينَ للجرَاحَةِ ، ومعَكَ يا بُنَىّ دعَوَاتُ كلّ مريض يُشْفَى على يدَيْك .

أبو الجراحة

وبدأ « خلفَ » يمارِسُ عملَه كأوّلِ طبيبٍ جراح ، عرفته الدّنيا ، يعاونُه أطباءٌ مساعِدُون ، يعرفُون كيْفَ يمدّونَه بآلاتِ الجِراحَةِ ، وكيفَ يساعِدُونه فى تنفيذِ الجراحةِ آلةً بعد آلةَ ،

ويجفّفون لهُ عرَقه ، ويتعلّمُون منهُ مهارَاتِ يديْه من بتْرٍ ، وشَقٍّ ، وفصْدٍ ، وسَلْخٍ ، وكشْطٍ ، وحقْنٍ . ويجعلُون لهُ المكاوِى المتعدِّدةَ الأنواعِ ، فى اللحظَةِ المطلوبَةِ ، على الدرجَةِ التى لا ينصهِرُ فيها الحدِيد (ألغِىَ استخدامُ الكىّ فى عصرنا الحديث) .

وشُفِىَ على يدَىْ « خَلَف » كثيرٌ من المرْضَى ، وتدرّب أطباءٌ جراحُون على يديْه ، من كلّ بيمارستَانَاتِ الأندَلُس ، وشاركُوه فى عملياتِهِ الجراحِيّة ، وأساليبِها ، فى جراحاتِ الشّرَايين ، واستخراجِ الحصَى ، والعيونِ ، والأُذُن ، والأنْفِ . والحنجَرة ، والصّدرِ ، والبْطِن ، والقصَبةِ الهوائِيّةِ ، والسّرّة ، والأوْرَام ، والعُقَدِ اللّيمفَاويّة ، والمجارِى البَوْلِيّة والتناسُلِيّة ، والولادَات العسِرَة ، وفى عِلَاجِ القُرُوحِ ، وإيقافِ النزِيف ، والاستسْقاءاتِ ، وفى طرقِ استخدامِ خيوطِ الجراحة ، وكمّيَاتِ التّخدِيرِ ، ومَدَاها . فَلَه فى هذا كلّه اكتشَافَاتٌ جِراحِيّةٌ ، وعلاجِيّة ، لم يسبقْهُ إليهَا أَحَد .

وطارَ صِيتُ (سُمعةُ) « خَلَف » على ألسنةِ الأطبّاءِ ، والمرضَى ، والعلماءِ ، والأُدباءِ ، والتّجّارِ ، والرّحّالةِ ، فى أرجاءِ العالَمِ الإسْلَامى . ووصلَتْ أخْبارُ نبوغِه وابتكاراتِه إلى أطباءِ

أوربا ، شرْقا وغربا ، وشمالاً وجنُوبا ، فتوافَدُوا مثْلَ الأطبَّاءِ المسلمينَ ، على قُرْطُبَةَ ، يتعرّفُون ، فى أولِ مدرسةٍ عالميةٍ للطبّ ، على آلاتِ الجراحة ، ويشاهدُون بأعينهِم أساليبَ الجراحةِ الجديدَةِ ، ثم يعودُون إلى بلادِهم ، بعد شهورٍ أو سنين ، حاملِينَ معهم فنّ وآلاتِ الجرّاحِ العربىّ المسلِم : « خلفِ ابنِ عبّاس » ، ابنِ الزهراءِ العبقرِى .

ودعَا هذا النبُوغ المدهِشُ ، الخليفَةَ « الحكم » إلى إسنادِ رئاسَةَ بيمارستان قُرْطبة ، إلى « خلَفِ بنِ عبّاس » ، فقد كبُرَ أستَاذُه « عِيسى » فى السِّنّ ؛ وحسْبه قيامُه بدورِه كطبيبٍ ووزيرٍ للخليفةِ « الحكم » . وقالَ « الحَكَمُ » لخلفَ ، فى مَحْفِلِ إسنادِ هذا المنصِبِ إليْه :

– مِنَ اليومِ أيّها الطبيبُ الأمِين ، سيكونُ لقبُك هو « الزهْرَاوِىّ » ، فأنتَ ابنُ الزهراء ، وأوّل وليدٍ بها ، وهو لقبُ لن يحملَه أحدٌ سواك ، على مرّ العُصُور .

درّة الجبــل

كان المسلِمُون قد أُخرِجُوا من ساحِلِ « بُروفانس »

(جنوبيَّ فرنسا) ، قبلَ عامٍ ، وكان بِنَاءُ الزهْرَاءِ قد تمَّ قبلَ عام ، بعد أربعِين سنةً من العمَلِ المتواصِل ، للمهندسِين والبنائِين والفنّانين . وجاءتِ الزهراءُ كأجمل ضاحِيةٍ ، وأكبر ضاحِيةٍ لمدينة ، فى زمَانِها ، وتجسّدت كُدُرَّة تَسْطَع فى ضِيَاءِ الشمس ، وتحتَ نجُومِ اللّيْل ، حولَ « جَبَل العرُوس » (مرتفعات سيرا مورينا) من سَفْحِه إلى قمّتِه . وكان جَبلاً أسوَدَ غطّاه البُسْتانِيّون الأندلسيون بأشجَارِ اللوْز ، فأحالَت زهُورُها البَيْضَاء لوْنَ الجَبَل ، إلى مَشْهَدٍ يُعْجِبُ الناظِرين .

وكانتِ الزهْرَاء ، بموقِعها الجبلِيّ الفرِيد ، على بعدِ ثلاثةِ أميالٍ ، فى الشمالِ الغربيّ لقرُطبةَ ، ذاتَ مستوياتٍ ثلاثة مُتَدَرِّجَةٍ ، فى كلّ مُسْتَوًى مِنها حَيٌّ من الأَحْيَاءِ ، لفئَةٍ من السّكانِ ، ولكلّ حيٍّ سورٌ ، يقومُ عليهِ الحرّاس ، ويغلِقُون أبوابَه معَ اللّيل ، ويفتَحُونه مع آذانِ الفجْرِ ، ولا يمرّ من هذِهِ الأبوابِ أحد ، بيْنَ هذيْنِ الوقْتَيْنِ ، إلا بإذْن مُوَقّع مِنَ كبِيرِ الحرّاسِ .

وكانَ الحيّ الأَدْنى يضمُّ الدّورَ والأسْوَاقَ ، ويتوسَّطُهُ مسجِدُ الزهْرَاء ، والحيّ الأوْسَط يضُمّْ القصُورَ العِديدَةَ ، ويتوسّطها قصْرُ الروضةِ (قصر الزهراء) ، وفيه يُقيمُ الخليفَةُ



« الحكم » ، والحىّ الأعْلَى به رياضُ الزّهْرَاءِ ، وحدائقُها ، وبساتِينُها ، ومتنزهَاتُها ، الملْأَى بـالحشَائِش والأشجـارِ والشّجَيْرَاتِ ، والممَاشِى المعبّدِة بالحصَى والأحجار ، وأحواضِ الزهورِ المتعدّدَةِ الألْوَانِ .

وكانتِ المياهُ تصِلُ إلى الزهراءِ فى قناةٍ مُدْهشِة ، يبلُغُ طولُها ثلاثِينَ كيلو متراً ، تحمِلُ المياه إلى الزهراءِ ، من نهرِ الوادِى الكبير . وكانتِ النواعِيرُ (السّواق.) ترفَعُ المياهَ من مُستوَى القناةِ ، إلى أحوَاضٍ أعْلَى ، فأعْلَى ، إلى أن تتدفّق فى بساتِين المستوَى الأعْلَى ، وتنحدِرَ مرةً أخرى عائدةً إلى القناةِ ، وفى صعُودِها ونُزُولِها يأخُذُ سكانُ الزهراءِ من الماءِ ، ما يشاءونه فى اللّيلِ والنّهار ، لِمَا يشاءُونه من الأغراض .

وصار مَسجِدُ الزهراءِ ، الذى فرُشَت أرضُه بالرخَامِ الملون ، مثلَ المسجدِ الجامعِ بقرطبة ، مدرسةً للعِلْم ، كما هُوَ مسجِدُ للصلاة .

القصــر المسحــور

ودُعِى « الزهْرَاوى » مع أبِيه ، للقاءِ الخليفَةِ الحَكَمِ فى



قصرِ الروْضَةِ ، فدخَلَاه معا ، بعدَ صَلَاةِ العَشَاء ، فى مسجِدِ الزهْرَاء . ورأَى « الزهرَاوِىّ » قصراً باهِراً كُسِيَتْ جدرانُه بالرخَام ، وطُعِّمتْ نقوشُه وزخارِفُه بالذهَبِ والفِضّة ، وفى نواحِيهِ الفسِيحةِ بركٌ وأحْوَاضٌ ، ملأَى بالمياهِ ، والنوافِيرُ تدفعُ إليها بمزيدٍ من المِيَاه ، لا تفِيضُ حولَها قط ، من أفْوَاهِ تماثِيلَ لحيواناتٍ ، وقد تَرَامَتَ وارْتَفَعَتْ حولَها الأشجارُ المزيّنة بالأنْوَارِ . ورأَى « الزهراوِىّ » أعمدةً من الرخامِ تعلُو شاهِقةً ، تحملُ قِباباً فى سقُوف القصْرِ ، أرْبعةَ آلافِ وثلاثمائةِ عمُود ،

تتدلّى منْها القنادِيلُ ، وتسطَعُ كلّها بأنوار متعددةِ الألْوانِ ، والدّرَجاتِ .

وتوقّف « الزهراوِىّ » مع أبيه ، أمامَ بركةٍ ملأًى بالزئْبَق ، صارَ يتغنّى بها الشّعراءُ فى الأندلُس بأسِرها . وأقبلَ الخِليفَةُ ، ورآهُما مبهورَيْن بمرأى بُحْيرَةِ الزّئْبَق ، فزادَهما انبهاراً ، حين أشَارَ إلَى أحدِ رجالِ القصْرِ ، فَدَفَع بطرَفِ عصاه فى البركَةِ عابِثاً ، فتأرجَحَ سطْحُ بِرَكةِ الزئبق ، واهتَزّ كَمَا الموْجُ ، وسجُفُ (أستَار) الحرِير ، بضياءَاتٍ خاطِفة ، كخيوطِ البَرْق ، تخطِفُ الأبصَار ، وانتفَضَ « الزهْرَاوِىّ » وَجِلا (خائفا) ، ولفَتَ بصرَه بعيداً عن الومِيض ، وكأنّه قدْ حَدّقَ لحظَةً خاطِفَةً فى عيْنِ الشّمْس . واقتربَ منهما الخليفَةُ ضاحِكا ، وهو يقُول لعبّاس :

— لم تخطُرْ هذِه الفكرةُ لكَ على بالٍ يا عبّاس . استَعَرْنا فِكْرَةَ هذِه البركةِ من مِصْر ، من بحيرَةِ الزئْبَقِ التى كانت لخمارَوْيه ، فى سالِفِ الأيّام .

كن على حذر

ودعَاهما الخليفَةُ فجلَسَا معَه . وقال الخلِيفَةُ للزهرَاوِى :

– ودّعنا عِيسَى يا زهْرَاوِى ، وصعِدَت روحُه إلى بارِئها (خالقها) .. وقدْ جعلتُك فى مكَانِه ، طبيباً للقصْر ، ووزيراً مع وزَرَائِى ، فنظّمَ وقْتَك بين عملِك فى البيمارستان ، وبين عملِك هنَا فى هذَا القصرِ ، يومٌ هنا ، وأيامٌ هناك ، ومن كانَ بحاجةٍ عاجلةٍ منّا سَعَى إليكَ ، حيثُ أنْتَ .

ثم ضحِك « الحَكَمُ » وقالَ للزهرَاوِىّ :

– حدّثنا الآن يا أبَا القاسم ، عن أحلامِك الأُخْرى للطبّ والأطباء ، فالعَقْل المبتكِرُ لا يتَوَقّفُ عن الابتكَارِ والعَطَاءِ .

فقالَ « الزهرَاوى » :

– أفكّر يا مولاىَ فى ثلاثَة أمور : أن نُعِيدَ تدريبَ القابِلاتِ على فنّ التولِيد ، وتعليمِهِنّ ما يلزَمهُن من العِلْم ، ونُعلّمهنّ جراحَاتِ التولِيدِ ، فقد لا يُسعفِهُنّ طبِيبٌ بالحضُورِ إليهِنّ ، فى القرَى والنجُوع .

فقالَ « الحَكَم » :

– هذَا أمرٌ حَسن ، فنفّذْه . والأُمرُ الثانِى :

فقال « الزهرَاوى » :

– إعدادُ مواسيَاتٍ (ممرِّضات) يا مولاى ، يُوجَدْن مع الأطباءِ ، فى البيمارستانات ، مُدَرّبَاتٍ على خدمَةِ المرضى ، يعطِين لهم جرْعَاتِ الدواء ، ويقدمْن وجْبَاتِ الغِذَاء ، فى المواعِيدِ المحدّدةِ ، ويستنجِدْن لهم بعوْن الأطباءِ ، حين يتضاعَفُ معَهم المرضُ فى ظلام الليْل ، لسبَبٍ من الأسْبَاب .

فقال له « الحَكم » :

– افعلْ ذلك أيضاً ، وكُنْ على حذر ، فسوْف يقاوِمُك الفُقَهاء ، وقد لا أكُون حيّا ، للوقُوف بجانبِك ، والدفاعِ عنك . والأمر الثالث ؟

فقال « الزهراوِىّ » .

– أنْ أضعَ كتاباً ، موسوعَةً فى الطبّ ، عن الأمراضِ وعلاجِها ، والجراحةِ وأساليبِها ، وآلاتِ الجراحةِ وأشكالِها .

فقال « الحكَم » :

– حسناً تفعلُ ، ولا تؤجّل ذلِك لقادِمِ السنِين ، واجعلْ من مرّ الأيام وسيلةً للإضافَةِ والتعديلِ والتحسِين ، فى كتابِك هذا . أىّ عُنْوانٍ ستضعُه له ؟

فقال « الزهراوِىّ » :

– التصريف .. لمن عجز عن التأليف .

فقال « الحَكَمُ » :

– اِقرِنْ فيه إذَنْ بينَ العِلْم والعَمل . افعلْ فى تأليفِك ، ما فَعَلَه أبُوك فى رسمه لتصنِيمات الزخَارِف ، وما فعلتَه أنتَ حين رسمْتَ أدواتِ الجراحَةِ وآلاتِها ، فلا شيءَ يوضّحَ معارِفَ العِلْم ، قدرَ الرسُوم ، وهى أمرٌ بديع ، فى كتابٍ للطب ، ولم يسبقْك إليْه أحَدٌ .

وحينَ انتصفَ الليْل نهض « الزهراوى » وأَبَاه ، وودّعهما « الحَكَمُ » عند بابِ القَصْر ، وترَك الضيفانِ وراءَهما ، فى القصر ، أربعمائَة غرفَةٍ ، يشغلُها جميعاً سكانُ القصر ، وضيوُف الخِلَافَةِ .

نساء الأندلس

وأقدم « الزهراوِىّ » فى البيمارسْتان على تدريبِ القابِلَات فصِرْن مولّداتٍ مُؤَهَّلات ، يعرفْن الضرورِىَّ من التشريح ، وطُرُقَ التولِيد ، وإجراءَ الجِراحاتِ العاجِلةَ ، لإنقاذِ الأجِنّة والأمهّات .

وأقدَم « الزهراوىّ » على إيجادِ المواسِيَاتِ (الممرضات) لأوّلِ مرةٍ فى البيمارستانات الإسلامية ، وسارعتْ للعمَلِ فى المواسَاة (التمريض) زوجاتُ وبنَاتُ الأطبّاء ، قبْلَ سواهُنّ من الزوْجَاتِ والفتيات ، وأيّدت نساءُ الأندلُس بأسرِها دعوةَ « الزهراوِىّ » الإنسانية ، وأوقَفْنَ أىّ احتجاجٍ للرجال . وكان أهلُ الأندلس أكثَرَ جرأةً وحرّية فى زمانِهم من سائرِ الأقطَارِ .

الحصـــاد العظـيم

وفيما وراءَ حدودِ البلادِ الإسلاميّة ، خاصةً فى أوروبا ، فى بلادِ الغَالِ (فرنسا) والرومان ، والجرمان (ألمانيا) والبلقان (شرق أوربا) ، تردّدَتْ درُوسُ « الزهرَاوِى » للأطباءِ من كلِّ الأجناسِ : العِلْمَ مُشَاعُ ، وحقُّ لكُلِّ إنسانِ ، ولكلّ الأجْنَاس ، فى كلِّ الأزمان . ومن حَجَب عِلْما فهوَ فى النّار . ومن احتَكَرَ عِلْما أو سرًّا من أسرَارِ العلم فهو فى النّار .

وراح أطباءُ تِلْك البلدانِ يمارسُون سرًّا حيناً ، وعلانِيةً حيناً آخرَ ، إجراءَ الجراحاتِ ، فقد كانَ البَابَوات (آباء الكنيسة) ، يحرّمون ، واحداً بعْدَ آخر ، إجراءَ الجراحَاتِ ، لأنّها ، فيما زَعمُوه ، اعتداءٌ على الجَسَد الذى خلَقَه الله . ويمارسُون سرًّا ،

فى كلّ الأحْوال ، تعلُّمَ التشرِيحِ ، على أجَسامِ الراحِلين ، والحيوانَاتِ القريبةِ فى تشريحِها من الإنسان ، مثلَما يفعلُ أطباءُ المسلِمين ، وهو أمرٌ آخر ، كانَ البَابوات يحرّمُونَه كلّ التحرِيم ، ويستنزِلُون اللّعْناتِ على منْ يقُومُ به ، ويجرُؤُ عليْه .

وكانَ الْمَرضَى فى تِلْك البلادِ الأُورِبيّةَ ، يتوجَّهُون إلى كنائِسَ رُسِمَت على زجَاجِ نوافِذِها ، صورَةُ « الزهْراوِى » ، رائِدِ عِلْمِ الجراحة ، ويبتهلُون إلى ربِّ « الزهراوِىّ » ليأْخُذَ بأيدِيهم ، ويُمنّ عليهِم بالشفاءِ ، فيما سيُجرِيه لهُمْ الأطباءُ ، تلامذةُ « الزهراوى » من جراحات .

لا يبقى سوى العلم

وكان « الزهراوى » قد بلغ من العمْرِ أربعينَ سنةَ ، حين ودّع « الحكم » دُنْيا الناسِ ، ولقِى وجهَ ربّه ، فلم يهنَأْ بالإقامَةِ فى قصرِ الروْضَةِ ، سوَى عامٍ واحدٍ . وآلَتْ الخِلافَةُ من بعدِه إلى ابنِهِ « هشامٍ الثانى » ، وصار « المنصور محمد بن عامر » حاجِباً لهُ ، ومستبِدًا ، كملِكٍ من الباطِن ، بأمورِ الأندلُس ، دُونَ الخليفَةِ الصغِيرِ السِّنّ ، فعادَ بسلْطةِ الحكمِ والخلافَةِ إلى قصرِ الخلافة الأولِ فى قُرْطبة ، وأهمَلَ شأْنَ « الزهْراء » . وراحَ

يُنْشِيءُ لنفسِه ضاحِيةً أُخْرَى أسْمَاها « الزاهِرَة » ، أَتمّ بناءَها فى أربَعِ سَنَوات ، ونقَل إليها ديوانَ الحُكْم ، وأنشَأَ بها ديواناً (مجلِسا) للشعراءِ والأُدباءِ ، وندْوةً للعلماءِ ، واعتمدَ على رجالٍ وعلماءٍ آخرِينَ ، غيرَ رجال « الحَكم » وعلمائِه ، فاستراحَ « الزهراوى » عن دورِه كطبيبٍ للقصر ، ووزير للخليفة ، وتفرّغ إلى نهايةِ عمِره لإنجازِ كتابِه : « التصريفُ لمن عَجَزَ عن التَأْليف » ، وأَبْقَاه « المنصُور » فى منصِبه كرئيسٍ للبيمارستان ، لكفاءتِه ، وحُسْنِ سمعِته ، وشهرتِه الواسِعَةِ فى قارّاتِ العَالِم القديمِ الثلاث .

وكانَ المنصورُ ، على استبدادِه بالحُكْم ، حاكِماً عادِلاً ، ومحارِباً شُجَاعاً ، يقمَعُ كلِ الثَورَاتِ ، ويردّ عن الأندلُس كلّ الغارَاتِ ، وبلغتْ حروبُه سبعَةً وعشرِينَ حَرْبا ، فى سبعٍ وعشرِين سنةً ، ولِقَى « المنصُور » أجلَه بمدينَةِ « سالِم » وهو عائدٌ من الغزْوِ فى الشمالِ ، وكان « الزهراوى » قد بلغَ من العمرِ ستّا وستِّينَ سنةً .

واضْطَرَبَتْ أمورُ الحُكْمِ والخلافةَ من بعدِ « المنصور » ، وتصارَع علَيهما أبناؤه ، وبنُو أمَيّة ، إلى أنِ انفرَدَ بها « المهدِىّ محمدُ بنُ هشامِ الثانِى » بعْدَ سبْعِ سَنوات ، فخَرّبَ ضاحِيَتِي

« الزاهِرَة » و « الزهْرَاء » معا ، وَرَثَاهُمَا الشعراءُ مِثْلَما يرْثُونَ الممالِكَ والدّوَل . فهمَس « الزهرَاوِىُّ » لنفسِه : « لا يَبْقى سِوَى العِلْم » .

ذروة المجــد

عاشَ « الزهراوِى » فى القرْنِ الرابع الهجْرِى ، العاشِرِ الميلادِىّ ، وفى هذا القرنِ بلغَ سلطانُ المسلِمينَ السياسىُّ والحرْبِىّ ذِرْوَة مجدِه فى الأندلس ، وبلادِ المغربِ التابعةِ للأندلُس ، وبلغتْ مدينةُ قُرطبة أعْـلَى درجاتِ الرقـىّ فى العمارَةِ والثقافَة ، وازدانَ بلاطُ قرطبّة بصفْوَةٍ من العلَماءِ . وكانتِ الفتوحَاتُ الإسلاميّةُ تكتِسحُ أفريقيا الشرقيةَ بأسرِها ، على حِين كانتْ تخومُ (أطراف) البلادِ الإسلاميّة تنكمِشُ وتتراجَعُ فى : كريت والشام ، وما وراءَ القُوقَاز ، وما ورَاءَ النهْرِ (شرقّى بحر قزوين) فقد تسلّل الضعْفُ إلىَ الدولةِ العباسِيّة تحتَ سيطرَةِ البويهيّين الشيعيةَ فى بغداد ، ومناهَضَةَ الخلافَةُ الفاطمية الشيعيّة فى مصر ، والقرامطةِ الشيعةِ فى شبْهِ الجزيرَةِ العربِيّة ، للخلافَةِ العباسِيّة .

قــرن الصفــوة

وفِى هذَ القرْنِ ، ظلّت بغدَادُ ، مع ذلِكَ الضعْفِ ، كعبةً للثقافَةِ فى عهدِ البُوَيْهِيّن ، الذين شمِلُوا برعايتِهم البحوثَ العِلْمية فى الفلَكِ والرياضَة خاصة ، وزاحَمَهُم فى رعايةِ الفكرِ الحمدانِيّون فى حلَب والمَوْصِل ، والسامَانِيّون فيما ورَاءَ النهْرِ ، والأموِيّونَ فى قُرْطُبة والأنْدلُس .

ولمعَ من أئمّةِ الفكرِ فى هذَا القرن : الجغرافِىّ المؤرّخُ « المسْعُودِىّ » كاتِبُ الحولِيّات ، والمفسّر « الطبرِىّ » ، والشاعرُ « المتَنبِّى » وجامِعُ الدواوِين الشعرِية « الأصفَهَانى » ، وصاحبُ الفَهْرَسْت « الندِيمُ » ، والفلكِىّ الرياضِى « أبو الوفا » ، والمتكلّم « الأشعرىّ » والطّبِيبُ الشهِيرُ « علَـىُّ بنُ العبّاس » ، وأبو الجراحة فى كلِّ العصور : « الزهرَاوِىّ » .

وكان هذَا القرنُ قرناً عجيباً فى الثقافَة ، بَزَّ (تفوّق) فيه العرَبُ الفُرسَ فى تفوقِهِم العقْلِىّ ، فكتبُوا بحوثاً فى الأنسَابِ والآثارِ وفقْهِ اللّغةِ ، وعملوا جداوِلَ فلِكيةً ، وألفُوا كتباً كثيرَةٍ فى وصْفِ البلدان ، وأصدرَتْ جماعاتُ « إخوان الصّفا » رسائلَ فى العلُوم ، تنطلِقُ فى فكرِها من مذهَبِ الأفلاطونيّة الفلسفِيّة

الجديدَةِ ، وكانتِ الأعدادُ الهندِيّةُ تنتشِرُ فى العالَمِ الإسلامِىّ شرقاً وغرْباً ، و « أَلْفُ ليْلَةٍ ولَيْلَةٍ » تُصَنّفُ ، فِى صُورَتِها الأُولَى ، بالعربية .

وجاءَ الحصادُ الثقافِىُّ لِهَذَا القرنِ ضخْمًا فى مجموعِه ، عربىّ اللّغَةِ فى معظَمِه ، وكانَ حصاداً يفوقُ فى جهدِه ، أىَّ جهدٍ وعطاءٍ ثقافِىّ للدّوَلِ غيرِ الإسْلامِيّة ، فى قارّاتِ العالَمِ القديمِ الثّلاث .

دســتور الجــراحـة

حين بلغَ « الزهرَاوِىّ » من العمرِ ستاً وسبعين سنَةَ ، عادَ « أَبو بكْر الكِرْمانى » من مدينة « حَرّان » حامِلا معه ، من المشرِقِ ، رسَائِل « إخوانِ الصفَا » ، ومعرفَـةً واسعـةً بالرياضِيّات ، وتقريراً مستفيضاً عن « البيمارستان » الذى أنشأه « عضُدُ الدولِةِ » فى بغْدَاد ، وكانَ « الزهراوِىّ » قد بعثَ به ، قبلَ ستِّ سنواتٍ ، إلى « حَرّان » ليعرِفَ للأندَلُس ، ما لم يكُنْ معرُوفا من الكتب ، وتَطَوُّرَاتِ العُلوم .

وجلَس « الزَهْرَاوِىّ » مع ابْنِه ، ومَعَ « الكِرْمَانى » وقدّم

لهما خبْرةَ حَيَاتِه كلّها ، العِلْمِيّة والعَمَلِيّة ، فى كتابِه « التصريف » ، وكانَ كتاباً طبّياً موسُوعِيا شامِلاً فى ثلاثِينَ جزْءًا ، أولُها فى كلّياتِ الطبّ النظرِية ، وثانِيها وثالِثُها عن الأمْرَاضِ وأسْبَابِها ، من الرأسِ إلى القَدَم ، وآخرها عن الجِرَاحَةَ عَامّةً . وبينَ هذِهِ وتِلْك اثنان وعشرِينَ جزءًا ، خاصةً بالأدْوِيَةِ المفردَةِ والمركّبَةَ ، ومْكاييلها ، وموازِينِها .

وكان الجزءُ الثلاثُونَ يقَعُ فى ثلاثَةِ أبْوَابِ ، يَندرِجُ تحتَها مائةٌ وثمانيةٌ وثمانُون فصلاً ، عن الجراحَاتِ ، وعملِيّاتِ الجراحَةِ ، وطرُقِها ، وعن طُرُق ومواضِعِ الْجَبْرِ ، والخلْع ، والكسْرِ ، والكَىّ ، وكان جزءًا مزوَّداً بالرسُوم لآلاتِ الجراحةِ ، وأدواتها .

الليــلة الأخــيرة

وكانَ « الزهراوِىّ » قد بلَغَ من العمرِ سبعاً وسبعين سنَة ، وقد أرْهَقَه ما بَذَلَه من جُهْدٍ ، فى سنَوَاتِ عمرِه ، فاعتكَفَ فى دارِه بقُرْطبة ، يفِدُ الأطباءُ لزيارتِه ، واستشارتِه ، والأصدقاءُ لعيادتِه فى أمراضِ الشيخوخةِ ، والفقراءُ طلباً لعلاجِه لأمراضِهم ، والطلابُ الناشِئُون فى البيمارستان الذى صَارَ على يد « الزهراوى » داراً للعلاج ، ومدرسةً لتعلّم طبّ الجراحةِ ،



خاصةً ، يطلُبُون علمَه ، وينصِتُون إلى نصائِحه . وقالَ لهم فيما قالَه ذاتَ لَيْلَةٍ :

– راجعُو التشرِيحَ قبْل كلِّ جِرَاحَة ، فالجهلُ بالتشرِيحِ يؤدّى إلى نتائِجَ وخِيمة . وعليكُمْ أن تأْخُذُوا بالحذَرِ ، قبلَ كُلِّ جِرَاحةٍ ، فلا يمارِسْ أحدُكُمْ الجراحةَ ، وهو يشعُرُ بالغُرُورِ ، أو يحسُّ بالخوْفِ ، أو الغَضَب ، وابتعِدُوا عن الجَراحَاتِ الخطِرَة ، العَسيرةِ البرْءِ (الشفاء) ، فمثلُ هذه الجراحَاتُ لم تُعْرفَ بُعدْ . واحرِصُوا ، حين تصيرُون أطبَّاءَ ، على حضُورِ كلّ الجرَاحات ، وأخْذِ بعضِكُمْ لمشُورَةِ البعْضِ ، ومعاونَةِ بعضِكُمْ

لبَعْض ، ولا تبخَلُوا بطِبِّكم على صدِيقٍ أو عدُوّ ..

وفى تِلْكَ الليلَةِ ، أسلمَ « الزهراوِىّ » الروّح ، وكان وحِيداً فى فِرَاشِه ، عند أَذَانِ الفجْرِ ، فى العامِ الهجرِىّ الرابعِ بعد الأربعمائةِ ، الميلادِىّ الثالث عشرَ بعْدَ الألْف .

وبكتْه الأندلُس ، وسرَتْ أخبارُ وفاتِه إلى عواصِمِ الفِرنْجَةِ ، فحزِنَ أهلُها عليْه ، حُزْنَهم على عالِمٍ من عُلَمَائِهِم .

●

وفى القُرونِ التسعةِ التالية ، شاعَتْ معارِفُ الجراحةِ الزهراوية ، وأساليبِها ، وآلاتِها وأدواتِها فى أرجاءِ أوربا ، وصارتْ طرائِقُ « الزهراوِىّ » الجراحِية معروفةً عند كلّ أطباءِ أوربا باسم : « الزهراوِيّة فى الجِراحة » فى الجامعاتِ ، والمستشفياتِ .

وكَتَب الأوربيّون اسمَ « الزهراوِى » ، ونطقُوه بطرُقٍ شتّى ، فهو : البلكاسس ، و : أبو الكاسس ، و : السروى ، و : أكارانى ، و : زاهرفيوس ، و : الكارافى ، و .. الزّهراوِى .

وبلغَ من افتتانِ أطباءِ الفرنجة بابتكاراتِ « الزهرَاوِىّ »

الجراحية ، أن بعضَهم نسبَها إلى نفسِه ، مثلَ وضْع « والشَر » فى الولاداتِ العَسِرة .

وانتقلتْ نسخُ أجزاءِ كتابِ « التصريف » ، فى أرجاءِ العالَمِ الإسلامى ، فى زمانِه ، وتُرْجِمَت إلى اللاتينيّةِ فى القرنِ الثانِى عشرَ الميلادِىّ ، تُرجَمْت كلّها حِيناً ، وبعضُها حيناً آخر ، منذ سقطتْ مدينَةِ « طليطلة » فى يَدِ الأسْبَان .

وتوالتْ تَرْجَمَاتُ « التصريفِ » إلى القرنِ الثامِنِ عشرَ الميلادِىّ ، من العربيّة إلى الإنجليزيّة ، والفرنسيّة ، والألمانيّة ، والعبريّة ، والتركيّة . ورغْمَ كلّ هذه الترجماتِ لكتابِ « الزهْرَاوِىّ » ، وسواه من علماءِ الإسلام ، كان علماءُ الغرْب يقولُون : « من لَمْ يعرِفْ العرِبيّة لم يعرِفْ من العلْمِ شيْئاً » .

وشاعَتْ نُسخُ كتابِ « التصْريف » العربيّة ، فى مكتبات : جُوته ، وبارِيس ، وبودِلْيانا ، ومونبِلييه ، وهانتنكتُون ، ومكتبة مدينة حيدرَ آبادَ الدكْن ، التى طُبِع فيها القِسمُ الجراحِىّ بالعربية ، فى العِقْد الأوّل من القرْنِ العشْرِين ، ثم طُبِع فى بارِيس طبعةً أنيقة ، فى العِقْد السابعِ من القرْنِ العشرِين ، وكانت أولُ طبعةِ لجزءِ الجرَاحَةِ ، بالعربيةِ واللاتينيةِ معا ، فى « أكسفورد » فى مجلدَيْن ، فى العقدِ الثامِن ، من القرنِ الميلادى الثامِنِ عشَر .

وكثيرُون من أطِبّاءِ العالَم ، استفادُوا ، أو اقتبَسُوا ، معارِفَ علمية من معارِف « الزهْرَاوى » ، عن التغذِية ، والسمُوم ، والجراحاتِ ، وبينَهم كانَ : « ابنُ العوام » ، و « شُولْيَاك » جرّاحُ فرَنْسا الكبير ، فى القرنِ الميلادِى الرابعِ عشر ، والذى أرْبت (زادت) اقتباسَاتُه من « الزهراوىّ » على مائِتَىْ مرّة ، والذى ألحقَ النسخَةَ اللاتينية لجزءِ الجراحَة ، بأهمّ مؤلفاتِه فى الطبّ الجراحى . وبينَهم كان الأطباء : فرارِى ، وجرَادِيلس ، و « اردُوزِيرِيس » الذى أخذ نصف معلوماتِه عن السمُوم ، من كتابِ « التصريف »

●

وحينَ يأتِى العامُ الثالثُ عشَر ، من القرنِ الحادِى والعشرِين ، سيكُونَ ذلِكَ العامُ ، هو العامُ الألْفى لوفاةِ « الزهراوى » . وحينَ يأتى العامُ السادِسُ والثلاثِين ، من القرْنِ الحادِى والعشْرِين ، سيكُون ذلِك العامُ ، هو العَامُ المائةُ بعدَ الألْف ، لذكْرَى ميلادِ « الزهراوِى » . ولعلّ العالَمِ العربِىّ والإسلامِىّ أنْ يحتفلَ بهذِه الذكرى ، لطبيبٍ عالمٍ ، نسِى العربُ والمسلمُون علْمَه وكتابَه وذكْرَاه ، وأحْيَا الغربيّون دائماً هذِه الذكرى فهُوَ : أبُو الجراحة ، فى كُلّ العُصُور .

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩٢ / ٥٠١٧

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

علماء العرب

١٩

الزهــراوى

الزهراوى أبو الجراحة فى كل العصور.. عاش فى القرن العاشر الميلادى . ومارس الجراحة بيديه بدلا من الحلاقين . وأعاد تأهيل القابلات . وابتدع نظام الممرضات . وابتكر آلات جراحية من حديد لا يصدأ بدلا من الذهب والفضة . واكتشف أساليب جديدة للجراحات الظاهرة والعميقة . وعلّم أسرار الجراحة لأطباء أوروبا فى زمانه وألف موسوعة طبية مزودة بالرسوم لأول مرة . إنها قصة تثير الفخار . يقرؤها الصغار والكبار .

صدر من هذه السلسلة :

92

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة